الشبهات الواردة
حول عصمة نبي الله يوسف عليه السلام
وردها من كلام ابن حزم

إعداد

د/ علي بن سنوسي الجعفري

الأستاذ المشارك في العقيدة والمذاهب المعاصرة

قسم الدراسات الإسلامية بجامعة تبوك

الشبهات الواردة حول عصمة نبي الله يوسف عليه السلام وردها من كلام ابن حزم

علي بن سنوسي الجعفري
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة قسم الدراسات الإسلامية بجامعة تبوك- المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني : aljafry20@gmail.com

الملخص :
الإيمان بالرسل عليهم السلام ركن من أركان الإيمان ولا يتم الإيمان بهم إلا بالإيمان بعصمتهم؛ وقد أورد أهل الزيغ والضلال شبهات حول عصمة الأنبياء عليهم السلام؛ ومنهم يوسف عليه السلام، تصدى لتفنيدها وبيان بطلانها أهل العلم، ومنهم الإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله.
ويعنى هذا البحث بجمع الشبه المثارة حول مسألة عصمة نبي الله يوسف عليه السلام ، وجهود الإمام ابن حزم في تفنيد هذه الشبه بأسلوب علمي رصين، لما عرف عنه -رحمه الله- من تتبع واستقصاء للشبهات، ولما اشتهر به من قوة علمية باهرة وحجج إقناعية ظاهرة.
كما يهدف إلى الدفاع عن أحد أصول الإيمان، وهو الإيمان بالرسل عليهم السلام؛ والذي يتضمن الإيمان بعصمتهم عن كل ما لا يليق بمكانتهم العلية، والوقوف على الردود الصحيحة على الشبهات المثارة حول مسألة عصمة نبي الله يوسف عليه السلام. كما يهدف إلى تقريب هذه المسألة لكثير من شرائح المثقفين في المجتمع بأسلوب علمي قريب.

الكلمات المفتاحية : شبهات ، عصمة ، الأنبياء ، يوسف عليه السلام ، ابن حزم ، جهود.

The suspicions about the infallibility of the Prophet Yusuf, peace be upon him, and their response from the words of Ibn Hazm

Ali sanosee Algaafary.
Department of Contemporary Belief and Doctrines, Department of Islamic Studies, University of Tabuk Saudi Arabia
Email: aljafry20@gmail.com

Abstract:
Belief in the Messengers, peace be upon them, is one of the pillars of faith, and faith in them is not achieved without faith in their infallibility. The people of aberration and delusion have reported suspicions about the infallibility of the Prophets, peace be upon them. Including Yusef, peace be upon him, to refute it and explain its invalidity, scholars, including Imam Ibn Hazm Al-Andalusi, may God have mercy on him.
This research is concerned with collecting the similarities raised about the issue of the infallibility of the Prophet of God Yusuf, peace be upon him, and the efforts of Imam Ibn Hazm in refuting this similarity in a sober scientific method, because he - may God have mercy on him - was known to follow and investigate the suspicions, and for his brilliant scientific power and apparent persuasive arguments.
It also aims to defend one of the fundamentals of the faith, which is the belief in the Messengers, peace be upon them. Which includes believing in their infallibility from all that is not befitting of their high position, and standing on correct responses to the suspicions raised on the issue of the infallibility of God's Prophet Yusuf, peace be upon him. It also aims to bring this issue closer to many segments of the intelligentsia in society in a scientific manner.
key words : Suspicions, Infallibility, The Prophets, Yusuf, Peace Be Upon Him, Ibn Hazm, Efforts.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله ،والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد :

فالإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الإيمان، والإيمان بالنبوة كما يقول ابن تيمية: (أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب ، اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر ،ولم يميز بين الخطأ والصواب) (١).

ومن الإيمان بالرسل الإيمان بعصمتهم كلهم ،كما قال تعالى : {لا نفرق بين أحد من رسله} سورة البقرة :آية ٢٨٥، فمقام الرسالة والنبوة أرفع مقامات البشر ، وقد خصهم الله من بين خلقه واجتباهم، فهم درة بني آدم ، وحجر زاوية الخلق، جللهم بالأخلاق الفاضلة ،وكملهم بالكمالات الوافية، وعصمهم بما وهبهم من نبوة، وحفظهم بما طبعهم وجبلهم عليه من خُلُق كريم ،وهدى مستقيم .

وقد تعرض بعض المفسرين -بلا تحقيق أو تمحيص- ، وبعض القصاص والوعاظ الجهلة لقصة نبي الله يوسف عليه السلام ،بذكر روايات باطلة ومرويات كاذبة تحط من المقام النبوي ،.وقد شنع بعض العلماء كابن خمير في كتابه تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، على هؤلاء القصاص والوعاظ ، فقال : "ويخوضون في أحوال الأنبياء عليهم السلام ويتمندلون بأعراضهم على رؤوس العوام والطغام ، ولا مشفق على دين الله تعالى " ثم قال : "وغرض هؤلاء الفسقة في سرد تلك الحكايات المورطة

(١) النبوات ١/ ٥٠٧ .

قائلها وناقلها في سخط الله تعالى أن يهونوا الفسوق والمعاصي على بله العوام ويتسللوا إلى الفجور بالنساء...." [١].

ومن بين من قيضهم الله تعالى من أهل العلم الكرام ،والأجلة الأعلام، فردّوا على شبهات المبطلين حول عصمة نبي الله يوسف عليه السلام ، العلامة ابن حزم الأندلسي رحمه الله في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وقد أحببت جمع كلامه وردوده على الشبهات المثارة في ذلك ، وترتيبها وتقريبها ،والتعقيب عليها ليعم النفع بها عند أهل العلم وطلبته.

أسباب اختيار الموضوع :

وقد دعاني لاختيار هذا الموضوع أسباب عدة منها :

- الدفاع عن المقام النبوي لنبي الله يوسف عليه السلام .
- إمامة ابن حزم وقوته في ردوده على الشبهات وتفنيدها .
- الوقوف على منهج ابن حزم وطريقته في تفكيك هذه الشبهات، والرد عليها .
- إثراء الساحة العلمية بالبحوث النافعة المفيدة .

(١) ا تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء: ص٤٩.

خطة البحث :

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

التمهيد: وفيه :ا لتعريف بالإمام ابن حزم وعقيدته .

الشبهات الواردة حول عصمة نبي الله يوسف عليه السلام وردها من كلام ابن حزم . وفيه ثمانية مطالب :

المطلب الأول : شبهة أخذ يوسف عليه السلام أخاه وإيحاشه أباه .ونقضها .

المطلب الثاني: شبهة اتهام يوسف عليه السلام لإخوته بالسرقة ولم يسرقوا . ونقضها.

المطلب الثالث: شبهة خدمة يوسف عليه السلام لفرعون .ونقضها .

المطلب الرابع : شبهة سجود أبوي يوسف عليه السلام له .ونقضها .

المطلب الخامس : شبهة قول يوسف عليه السلام لمن معه في السجن :اذكرني عند ربك . ونقضها .

المطلب السادس: شبهة أنَّ يوسف عليه السلام ينسى ذكر الله .ونقضها .

المطلب السابع : شبهة همِّ يوسف عليه السلام بما حرَّم الله .ونقضها .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

الفهارس : وتشتمل على فهرسي :

فهرس المراجع والمصادر .

فهرس الموضوعات .

كما وأسال الله أن يبصرنا بمعرفة الحق والذود عنه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

وفيه: التعريف بابن حزم وعقيدته(١) :

اسمه ونسبه : هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حـــزم بـــن غالب بن صالح بن خلف بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بـــن أبـــي سفيان القرطبي الأندلسي .

ولادته ونشأته : ولد رحمه الله سنة أربع وثمانين وثلاث مائة ، وقد نشأ في بيت عز وغنى ، فقد تقلد والده الوزارة سنين عديدة ، ثم وفقـــه الله لطلب العلم فبزَّ أقرانه ،و فاقهم بما آتاه الله من ملكات ، ومـــا وهبـــه مـــن صفات .

شيوخه وتلاميذه : أخذ عن العديد من أهل العلم من أبرزهم أبو عُمَرَ الطَّلَمَنْكِي ، والحافظ أبو عُمَرَ بن عبدِ البرِّ .

ومن أبرز تلامذته : أبو عبد الله الحميدي وأبو بكر بـــنِ العَرَبِـــي ، وغيرهم .

مؤلفاتـــه : من أهم كتب ابن حزم رحمه الله ، الفصـــل فـــي الملـــل والأهواء والنحل ،وهو في الأديان والفرق ، والمُحَلَّى فِي شـــرح المُجَلَّـــى، وكِتَاب الإِحكَام لأُصُوْل الأَحكَام في الفقه ، والتَّقَرِيْب لَحْد الْمنطق ،وكتـــاب الدّرَة في الاعتقاد وغيرها .

مذهبه الفقهي : تمذهب أولاً للمذهب الشافعي ثم تركه وأخذ بالمذهب الظاهري المعروف .

عقيدته : الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله ينتسب لمذهب الســـلف ،ويرى أنه الحق الذي يجب اتباعه . ومع ذلك فقد خالف منهج السلف فـــي

---

(١) انظر ترجمته في : أخبار العلماء بأخيار الحكماء (ص: ١٧٩) ، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥) ، معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٤/ ١٦٥٠) ، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب (٢/ ٤٥١) ،جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: ٣٠٨) ، تذكرة الحفاظ = طبقات الحفاظ للذهبي (٣/ ٢٢٧) .

بعض أمور الاعتقاد من أخصها ، قوله في الصفات فقد وافق الجهمية في نفي الصفات. "[١].

قال شيخ الإسلام :" وغلطه في ذلك بسبب أنه أخذ أشياء من أقوال الفلاسفة ، والمعتزلة عن بعض شيوخه ، ولم يتفق له من يبين له خطأهم ، ونقل المنطق بالإسناد عن متى الترجمان "[٢].

وقال أيضاً في بيان مبالغة ابن حزم في نفي الصفات :" وكذلك أبو محمد بن حزم، مع معرفته بالحديث، وانتصاره لطريقة داود وأمثاله من نفاة القياس أصحاب الظاهر، **قد بالغ في نفي الصفات وردها إلى العلم،** مع أنه لا يثبت علماً هو صفة، ويزعم أن أسماء الله، كالعليم والقدير ونحوهما، لا تدل على العلم والقدرة، وينتسب إلى الأمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة، ويدعي أن قوله هو قول أهل السنة والحديث، ويذم الأشعري وأصحابه ذماً عظيما، ويدعي أنهم خرجوا عن مذهب السنة والحديث في الصفات"[٣].

وفاته : توفي رحمه الله في شهر جمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وأربعمائة .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٠)

(٢) منهاج السنة ٥٨٣/٢ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٤٩) .وانظر الدرة في الاعتقاد ص٢٨٢، ٣٣٩، ٣٥٩ ، والتداخل العقدي للدكتور يوسف الغفيص ص٢٨٩- ٣٧٥ .

الشبهات الواردة
حول عصمة نبي الله يوسف عليه السلام
وردها من كلام ابن حزم .

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول : شبهة أخذ يوسف ﷺ أخاه وإيحاشه أباه .ونقضها .

المطلب الثاني :شبهة اتهام يوسف ﷺ لإخوته بالسـرقة ولـم يسـرقوا ونقضها .

المطلب الثالث: شبهة خدمة يوسف ﷺ لفرعون .ونقضها .

المطلب الرابع :شبهة سجود أبوي يوسف ﷺ له .ونقضها .

المطلب الخامس : شبهة قول يوسف ﷺ لمن معه في السـجن :اذكرنـي عند ربك .ونقضها .

المطلب السادس: شبهة أنَّ يوسف ﷺ ينسى ذكر الله .ونقضها .

المطلب السابع :شبهة همِّ يوسف ﷺ بما حرَّم الله .ونقضها .

المطلب الأول

شبهة أخذ يوسف ﷺ أخاه وإيحاشه أباه .ونقضها .

ملخص هذه الشبهة أنَّ يوسف عليه السلام أوحش أباه بأخذه لأخيه، وكذلك عدم إعلامه لأبيه بمكانه ليطمئن عليه وهو يعلم ما يقاسي من ألم الفراق ؛وكل ذلك من العقوق .

وللرد على هذه الشبهة بين ابن حزم رحمه الله أنَّ ما فعله يوسف بأخيه كان هو الأرفق بأخيه وبأبيه؛ وليتوصل بذلك إلى اجتماعهم ولم شملهم ؛ فنظر عليه السلام إلى ما هو الأصلح وفَعَلَه ؛ وهو ما حصل . وأنَّ المسلم لا يحل له أنْ يظن بمسلم فاضل عقوق أبيه فكيف يظن ذلك بنبي كريم .

وأما الزعم بأنه مكث مدة يستطيع بها الوصول إلى أبيه أو إخباره بمكانه ولم يفعل ، فقد بين ابن حزم رحمه الله أنَّ ذلك جهل شديد من قائله فإنَّ الأب في مكان وأمة وطاعة غير التي فيها الابن ،ثم اعتذر ليوسف عليه السلام بأنه لا علم له بما فعل أباه وما حاله بعد الفراق أو أنه لم يجد من يثق به ليوصل أخباره إلى أبيه ؛فلا يعد ذلك عقوقاً ؛ودليل ذلك أنه حينما أمكنه معرفة أهله استجلب أبويه وأكرمهم.

قال ابن حزم رحمه الله : "وَذكروا أَيْضا أَخذ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام أَخَاهُ وايحاشه أَبَاهُ عَلَيْهِ السلام مِنْهُ وَأَنه أَقَامَ مُدَّة يقدر فِيهَا على أَن يعرف أَبَاهُ خَبره وَهُوَ يعلم مَا يقاسي بِهِ من الوجد عَلَيْهِ فَلم بِفعل وَلَيْسَ بَينه وَبَينه إِلَّا عشر لَيَال" .

(قَالَ أَبُو مُحَمَّد) وكل هَذَا لَا حجَّة لَهُم فِي شَيْء مِنْهُ وَنحن نبين ذَلِك بحول الله تَعَالَى وقوته فَنَقُول وَبِاللَّهِ تَعَالَى نتأيد أما أَخذه أَخَاهُ وايحاشه أَبَاهُ مِنْهُ فَلَا شكّ فِي أَنَّ ذَلِك ليرفق بِأَخِيهِ وليعود إخوته إِلَيْهِ ولعلهم لَو مضوا بِأَخِيهِ لم يعودوا إِلَيْهِ وهم فِي مملكة أُخْرَى وَحَيْثُ لَا طَاعَة ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام وَلَا لملك مصر هُنَالك وليكون ذَلِك سَبَباً لاجتماعه وَجمع شَمل جَمِيعهم وَلَا سَبِيل إِلَى أَن يظنّ برَسُول الله ﷺ الَّذِي أُوتى الْعلم والمعرفة بالتأويل إِلَّا

أحسن الْوُجُوه وَلَيْسَ مَعَ من خَالفنَا نَص بِخِلَاف مَا ذكرنَا وَلَا يحل أَنْ يظــنّ بِمُسلم فَاضل عقوق أَبِيه فَكيف برَسُول الله ﷺ .

وَأما ظنهم أَنه أَقَامَ مُدَّة يقدر فِيهَا عَليّ ويتعف أَبِيه خَبره وَلم يفعل فَهَذَا جهل شَدِيد مِمَّن ظن هَذَا لِأَنَّ يَعْقُوب فِي أَرض كنعان من عمل فلسطين فِي قوم رحالين خصاصين فِي لِسَان آخر وَطَاعَة أُخْرَى وَدين آخر وَأمة أُخْرَى كَالَّذي بَيْننَا الْيَوْم وَبَين من يضافينا من بِلَاد النَّصَارَى كفــاليش وَغَيرهَــا أَو كصحراء البربر فَلم يكن عِنْد يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام علم بعد فِرَاقه أَبَاهُ بِمَا فعل وَلَا حَيّ هُوَ أَو ميت أَكثر من وعد الله تَعَالَى بِأَن ينبئهم بفعلهم بِهِ وَلَا وجــد أحداً يَثِق بِهِ فَيُرْسل إِلَيْهِ لِلِاخْتِلَاف الَّذِي ذكرنَا وَإِنَّمَا يستسهل هَذَا الْيَوْم مــن يرى أَرض الشَّام ومصر لأمير وَاحِد وملة وَاحِدَة ولِسَانًا وَاحِدًا وَأمة وَاحِدَة وَالطَّرِيق سابل والتجار ذاهبون وراجعون والرفاق سائرة ومقبلــة وَالْبــرد ناهضة وراجعة فَظن كل بَيْضَاء شحمة ،وَلم يكن الْأَمر حِينَئِذٍ كَذَلِك؛ وَلَكِــن كَمَا قدمنَا دَلِيل ذَلِك أَنه حِين أمكنه لم يُؤَخِّرهُ واستجلب أَبَاهُ وَأَهله أَجْمَعِــينَ عِنْد ضَرُورَة النَّاس إِلَيْهِ انقيادهم لَهُ للجوع الَّذِي كَانَ عَمَّ الأَرْض وامتيازهم من عِنْده فانتظر وعد ربه تَعَالَى الَّذِي وعده حِين ألقوه فِــي الْجــب فَــأتوهُ ضارعين راغبين كَمَا وعده تَعَالَى فِي رُؤْيَاهُ قبل أَن يأتوه وَرب رَئِيس جليل شاهدنا من أَبنَاء البشاكس والافرنج لَو قدر على أَن يستجلب أَبَوَيْهِ لَكَانَ أَشد النَّاس بداراً إِلَى ذَلِك وَلَكِن الْأَمر تعذر عَلَيْهِم تعذراً أخرجه عَن الْإِمْكَان إِلَى الِامْتِنَاع فَهَذَا كَانَ أَمر يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام "[١].

أجاب العلماء عن وجد يعقوب عليه السلام على ابنه حينما اســتبقاه يوسف عليه السلام عنده بعدة إجابات :

منها : أنَّ حزنه على يوسف غلب بحيث لا يؤثر فيــه فقــده لابنــه بنيامين .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ٨ -٩)

ومنها : أنَّ ذلك بوحي من الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب عليه السلام ليعظم ثوابه .

والذي استظهره الكثير من أهل العلم هو أنَّ ذلك كان بوحي من الله تعالى فلا يلحق يوسف عليه السلام من ذلك عقوق . وهذه بعض أقوال أهل العلم تبين ذلك ، قال القرطبي :" أَنَّ الْحُزْنَ كَانَ قَدْ غَلَبَ عَلَى يَعْقُوبَ بِحَيْثُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ فَقْدُ بِنْيَامِينَ كُلَّ التَّأْثِيرِ، أَوَلَا تَرَاهُ لَمَّا فقده قال:" يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ" [يُوسُفَ: ٨٤] وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى بِنْيَامِينَ، وَلَعَلَّ يُوسُفَ إِنَّمَا وَافَقَهُ عَلَى الْقُعُودِ بِوَحْيٍ، فَلَا اعْتِرَاضَ"[(١)] .

وذكر ابن الجوزي خمسة أجوبة عن ذلك ورجح أنَّ ذلك بوحي من الله تعالى . قال رحمه الله :" فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يطلب أخاه، وهو يعلم ما في ذلك من إدخال الحزن على أبيه؟

فعنه خمسة أجوبة: **أحدها:** أنه يجوز أن يكون ذلك بأمر عن الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب ليعظم ثوابه، وهذا الأظهر. **والثاني:** أنه طلبه لا ليحبسه، فلما عرفه قال: لا أفارقك يا يوسف، قال: لا يمكنني حبسك إلا أن أنسبك إلى أمر فظيع، قال: أفعل ما بدا لك، قاله كعب. **والثالث:** أن يكون قصد تنبيه يعقوب بذلك على حال يوسف. **والرابع:** ليتضاعف سرور يعقوب برجوع ولديه. **والخامس:** ليعجِّل سرور أخيه باجتماعه به قبل إخوته. وكل هذه الأجوبة مدخوله، إلا **الأول،** فانه **الصحيح.** ويدل عليه ما روينا عن وهب بن منبه، قال: لما جمع الله بين يوسف ويعقوب، قال له يعقوب: بيني وبينك هذه المسافة القريبة، ولم تكتب إليَّ تعرِّفني؟! فقال: إن جبريل أمرني أن لا أعرِّفك، فقال له: سل جبريل، فسأله، فقال: إن الله أمرني بذلك، فقال: سل ربك، فسأله، فقال: قل ليعقوب: خفتَ عليه الذئب، ولم تؤمنّي؟"[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠) .

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٥٣) :

وأما فيما يتعلق بالزعم بأنه مكث مدة يستطيع بها الوصول إلى أبيه أو إخباره بمكانه ولم يفعل فقد أجاب العلماء بعدة أجوبة :

منها : أنَّ ذلك كان بوحي من الله تعالى ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام، فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه .كما قاله ابن عطية والشربيني، وذكره الرازي والقرطبي .

ومنها : قالوا :إنَّ ذلك كان حمية من يوسف لأهله لئلّا يظنّ الملك بتعجيل استدعائه أهله، شدة فاقتهم . ذكره ابن الجوزي .

ومنها: أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرِّج نفسه إلى كمال السرور .ذكره ابن الجوزي .

ومنها : أنَّ ذلك أمرٌ خارقٌ للعادة أراد الله تعالى به ابتلاء يعقوب؛ فإنَّ بَلْدَةَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْ بَلْدَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَكِنْ لَمْ يَصِلْ خَبَرُ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ على سبيل نقض العادة .كما قاله الرازي والنيسابوري .

ومنها :أنَّه لا يلزم أنْ يكون الأمر والحال كما هو موجود الآن حتى يقاس عليه؛ فربما كان الأمر على غير المعتاد . ذكر نحوه الرازي .

والذي رجحه الكثير من العلماء هو أنَّ ذلك كان بوحي من الله تعالى :

قال ابن الجوزي :" والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء. وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً، ولا يقدر على دفع سببه"[(١)] . وقال ابن عطية :" ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العز إلا الوحي من الله تعالى، لما أراد أن يمتحن به يعقوب وبنيه"[(٢)].

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٦٦) ،
(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٨٣) .

وقال الشربيني :" أجيب: بأجوبة كثيرة للعلماء، وأحسنها أنه إنما فعل ذلك بأمر من الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله تعالى بذلك ليزيد بلاء يعقوب عليه السلام، فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه، ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه، وهو المتصرف في خلقه بما يشـــاء، فهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة مع قرب المسافة لمـــا يريد أن يدبره فيهم، والله أعلم بأحوال عباده"[١] .

وما ذكره ابن حزم رحمه الله هو قول وجيه وافقه عليه بعض أهـــل العلم ، والمراد هو تنزيه يوسف عليه السلام من عقوق أبيه وذلك حاصل في هذه الإجابة . والله أعلم .

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢ / ١٢٩) . وينظر لما سبق : زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٦٥) ، تفسير الرازي (١٨/ ٥٠٢) ، و(١٨ / ٤٩٢) ، تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٠) ، تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٨٢) ، التفسير الواضح (٢ / ٢٠٣) ، تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤ / ١١٩) ، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢ / ١٢٩) .

المطلب الثاني

شبهة اتهام يوسف عليه السلام لإخوته بالسرقة ولم يسرقوا .ونقضها .

ملخص هذه الشبهة أنَّ يوسف عليه السلام كذب حينما قال نفقد صواع الملك ، وقوله للعير إنكم لسارقون ولم يسرقوا .وذلك ينافي العصمة .

وقد رد ابن حزم على هذه الشبهة ببيان أنَّ قول يوسف عليه السلام كان حقاً ؛فإنه قال :"نفقد صواع الملك"(يوسف: ٧٢) ؛ فإنَّ صواع الملك مفقود حقاً ، وأما قوله " إنكم لسارقون "(يوسف:٧٠) فحق أيضاً فإنهم سرقوه من أبيه وباعوه !ولم يسرقوا الصواع الذي أدخله في وعاء أخيه دونهم؛ فالمناداة بالسرقة لهم هم وحدهم دون أخيه الذي أدخل يوسف الصواع في وعائه .

قال ابن حزم :" وبإدخاله صواع الْملك فِي وعَاء أَخِيه ولَم يعلم بذلك سائر اخوته ثمَّ أَمر من هتف أيتها العير أَنكُمْ لسارقون وهم لم يسرقوا ".

وَإِمَّا قَول يُوسُف لإخوته إنكُمْ لسارقون وهم لم يسرقوا الصواع بل هُوَ الَّذِي كَانَ قد أدخلهُ فِي وعَاء أَخِيه دونهم فقد صدق عَلَيْهِ السَّلَام لأَنهم سَرقُوهُ من أَبِيه وباعوه ولَم يقل عَلَيْهِ السَّلَام أَنكُمْ سرقتم الصواع وَإِنَّمَا قَالَ نفقد صواع الْملك وَهُوَ فِي ذَلِك صَادِق لِأَنَّهُ كَانَ غير وَاجِد لَهُ فَكَانَ فَاقِد لَهُ بِلَا شكّ "[1].

أجاب العلماء عن هذه الشبهة بعدة أجوبة :

منها :أنَّ قولهم إنكم لسارقون كان من باب المعاريض؛ فإنهم لم يسرقوا الصواع وإنما سرقوا يوسف عليه السلام . ذكره الرازي والقرطبي وغيرهما[2] ،وقال الطبري :" وجائز أنْ يكون كان أذَّن المؤذن بذلك عن أمر يوسف، واستجاز الأمر بالنداء بذلك، لعلمه بهم أنهم قد كانوا سرقوا سَرِقةً

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ٩)

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٨٧) ،تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٥)

في بعض الأحوال، فأمر المؤذن أنْ يناديهم بوصفهم بالسَّرق، ويوسف يعني ذلك السَّرق لا سَرَقهم الصُّواع"[١] . قال ابن الجوزي :" أنَّ المعنى: إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب، قاله الزجاج" [٢].

ومنها : أَنَّ ذَلِكَ الْمُؤَذِّنَ رُبَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ النِّدَاءَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِفْهَامِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا. ذكره الرازي والقرطبي[٣] .

ومنها : أَنَّ ذَلِكَ كَانَ حِيلَةً لِاجْتِمَاعِ شَمْلِهِ بِأَخِيهِ، وَفَصْلِهِ عَنْهُمْ إِلَيْهِ، وَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ بِنْيَامِينَ لَمْ يَعْلَمْ بِدَسِّ الصَّاعِ فِي رَحْلِهِ، وَلَا أَخْبَرَهُ بِنَفْسِهِ؛ لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل .ذكره القرطبي وابن عطية [٤].

ومنها : أنَّ قوله: (أيتها العير إنكم لسارقون) ، إنما هو خبَرٌ من الله عن مؤذِّن أذَّن به، لا خبر عن يوسف. وجائز أنْ يكون المؤذِّن أذَّن بذلك إذ فَقَد الصُّواع، ولا يعلم بصنيع يوسف. ذكره الطبري والقرطبي[٥] ، قال الرازي :" لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ نَادُوا بِذَلِكَ النِّدَاءِ عَنْ أَمْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْأَقْرَبُ إِلَى ظَاهِرِ الْحَالِ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمَّا طَلَبُوا السِّقَايَةَ وَمَا وَجَدُوهَا وَمَا كَانَ هُنَاكَ أَحَدٌ إِلَّا هُمْ غَلَبَ عَلَى ظُنُونِهِمْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَخَذُوهَا "[٦].

قال ابن الجوزي :"الثالث : أنَّ المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف. "[٧].

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٦ / ١٩٤)
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٥٧)
(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٨٧) ،تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٥)
(٤) تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٥) ،تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٦٣) :
(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٦ / ١٩٤) ، تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٥) .
(٦) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٨٧)
(٧) زاد المسير في علم التفسير (٢ / ٤٥٧)

ومنها : أنه فعل ذلك بوحي من الله ذكره ابن عطية وغيره[١] .

قال الرازي :" لَعَلَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ بِذَلِكَ تَشْدِيدًا لِلْمِحْنَةِ عَلَى يَعْقُوبَ وَنَهَاهُ عَنِ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَأَخْذِ الْبَدَلِ كَمَا أَمَرَ تَعَالَى صَاحِبَ مُوسَى بِقَتْلِ من لو بقي لطغى وكفر"[٢]. وقال القرطبي : "فَيُقَالُ: إِنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ كَانَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:" كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ" [٣].

هذه بعض أقوال أهل العلم التي اخترناها في تخريج ما وقع من يوسف عليه السلام وافق بعضها ما ذهب إليه الإمام ابن حزم ، والكل يرمي إلى تنزيه يوسف عليه السلام عما نسب إليه .

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٦٣)
(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨ / ٤٩٢)
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٢٣٥)

المطلب الثالث

شبهة خدمة يوسف عليه السلام لفرعون .ونقضها .

قال ابن حزم : "وبخدمته لفرعون ".أي ذكر المعترضون خدمة يوسف عليه السلام لفرعون حينما قال :" اجعلني على خزائن الأرض"(يوسف :٥٥) والله تعالى نهى عن الركون للظلمة .

قال ابن حزم في الرد على هذه الشبهة: "وَأما خدمته عَلَيْهِ السَّلَام لفرعون فَإِنَّمَا خدمه تقية وَفِي حق لاستنقاذ الله تَعَالَى أهل الأرض بِحسن تَدْبيره ولَعَلَّ الْملك أَو بعض خواصه قد آمن بِهِ إِلَّا أَنَّ خدمته لَهُ على كل حَال حَسَنَة وَفعل خير ،وتوصل إِلَى الاجْتِمَاع بِأَبِيهِ وَإِلَى الْعدْل وَإِلَى حَيَاة النُّفُوس إِذْ لم يقدر على المغالبة، وَلَا أمكنه غير ذَلِك وَلَا مرية فِي أَن ذَلِك كَانَ مُبَاحاً فِي شَرِيعَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام بِخِلَاف شريعتنا قَالَ الله تَعَالَى {لكل جعلنَا مِنْكُم شرعة ومنهاجاً}المائدة :٤٨ "(١).

ذكر ابن حزم عدة احتمالات جعلت يوسف عليه السلام يتولى هذا العمل لهذا الفرعون وهي كالتالي :

الأول : أنَّه فعل ذلك تقية للوصول لاستنقاذ أهل الأرض بحسن تدبيره.

الثاني : أنَّ الملك لعله آمن هو أو بعض خواصه .

الثالث : أنه إذ لم يستطع المغالبة ،فلم يمكنه إلا القيام بذلك للوصول للحق وإقامة العدل .

الرابع : أنَّ ذَلِك كَانَ مُبَاحاً فِي شَرِيعَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام بِخِلَاف شريعتنا .

وقد ذكر العلماء بعضاً من هذه الاحتمالات وغيرها في تولي يوسف عليه السلام لهذا العمل عند الفرعون :

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ٩)

منها :أنَّ يوسف عليه السلام كان أقوم الناس في إقامة العدل وإيصال الحقوق لأهلها فرأى أنَّ ذلك متعين في حقه القيام به .

ومنها : أنَّ ذلك كان خاصة ليوسف عليه السلام .

ومنها :أنه تولى ذلك لشدة الحاجة التي وقع فيها الناس .

ومنها : أَنَّهُ عرف أَن ذَلِك؛ وَصلة إِلَى وُصُول أَهله إِلَيْهِ من أَبِيه وَإِخْوَته وَغَيرهم .

ومنها : أنَّ الملك كان قد أسلم .

وهذه بعض أقوال أهل العلم تبين ذلك :

قال الرازي :" الْأَصْلُ فِي جَوَابِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ أَنَّ التَّصَرُّفَ فِي أُمُورِ الْخَلْقِ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ، فَجَازَ لَهُ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ، إِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ ذَلِكَ التَّصَرُّفَ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ لِوُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا حَقًّا مِنَ اللَّه تَعَالَى إِلَى الْخَلْقِ، وَالرَّسُولُ يَجِبُ عَلَيْهِ رِعَايَةُ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَالثَّانِي: وَهُوَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ بِالْوَحْيِ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ الْقَحْطُ وَالضِّيقُ الشَّدِيدُ الَّذِي رُبَّمَا أَفْضَى إِلَى هَلَاكِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، فَلَعَلَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ بِأَنْ يُدَبِّرَ فِي ذَلِكَ وَيَأْتِيَ بِطَرِيقٍ لِأَجْلِهِ يَقِلُّ ضَرَرُ ذَلِكَ الْقَحْطِ فِي حَقِّ الْخَلْقِ، وَالثَّالِثُ: أَنَّ السَّعْيَ فِي إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَى الْمُسْتَحِقِّينَ وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ أَمْرٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي الْعُقُولِ.

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مُكَلَّفًا بِرِعَايَةِ مَصَالِحِ الْخَلْقِ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ، وَمَا كَانَ يُمْكِنُهُ رِعَايَتُهَا إِلَّا بِهَذَا الطَّرِيقِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ وَاجِبٌ، فَكَانَ هَذَا الطَّرِيقُ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَلَمَّا كَانَ وَاجِبًا سَقَطَتِ الْأَسْئِلَةُ بِالْكُلِّيَّةِ"(١).

قال السمعاني : "**اخْتلفُوا أَن يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام لم طلب هَذَا؟** قَالَ (بَعضهم) : إِنَّمَا طلب ذَلِك لِأَنَّهُ عرف أَن ذَلِك؛ وَصله إِلَى وُصُول أَهله إِلَيْهِ

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٧٣)

من أَبِيه وَإِخْوَته وَغَيرهم، وَمِنْهُم من قَالَ: إِنَّمَا طلب ذَلِك لِأَنَّهُ عرف أَنه أقوم النَّاس بِالْقِيَامِ بمصالح النَّاس فِي السنين الشداد، فَطلب لهَذَا الْمَعْنى "(١)

. وقال ابن الجوزي :" قال الزجاج: وإنما سأل ذلك لأنَّ الأنبياء بُعثوا بالعدل، فعلم أنه لا أحد أقوم بذلك منه." (٢)

قال القرطبي :" فَالْجَوَابُ: أَوَّلًا- أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا طَلَبَ الْوِلَايَةَ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ وَتَوْصِيلِ الْفُقَرَاءِ إِلَى حُقُوقِهِمْ فَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ فَرْضٌ مُتَعَيِّنٌ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُهُ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ الْيَوْمَ، لَوْ عَلِمَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَقُومُ بِالْحَقِّ فِي الْقَضَاءِ أَوِ الْحِسْبَةِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَصْلُحُ وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ لَتَعَيَّنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَوَجَبَ أَنْ يَتَوَلَّاهَا وَيَسْأَلُ ذَلِكَ، وَيُخْبِرُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْكِفَايَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَمَّا لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَقُومُ بِهَا وَيَصْلُحُ لَهَا وَعَلِمَ بِذَلِكَ فَالْأَوْلَى أَلَّا يَطْلُبَ، لقول عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ:" لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ"(٣).

قال ابن حيان :" وَإِنَّمَا طَلَبَ يُوسُفُ هَذِهِ الْوِلَايَةَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى إِمْضَاءِ حُكْمِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ، وَبَسْطِ الْعَدْلِ، وَالتَّمَكُّنِ مِمَّا لِأَجْلِهِ تُبْعَثُ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى الْعِبَادِ، وَلِعِلْمِهِ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يَقُومُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ قَدْ أَسْلَمَ كَمَا رَوَى مُجَاهِدٌ فَلَا كَلَامَ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْحُكْمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ إِلَّا بِتَمْكِينِهِ، فَلِلْمُتَوَلِّي أَنْ يَسْتَظْهِرَ بِهِ. وَقِيلَ: كَانَ الْمَلِكُ يُصْدِرُ عَنْ رَأْيِ يُوسُفَ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ مَا رَأَى، فَكَانَ فِي حُكْمِ التَّابِعِ. وَمَا زَالَ قُضَاةُ الْإِسْلَامِ يَتَوَلَّوْنَ الْقَضَاءَ مِنْ جِهَةِ مَنْ لَيْسَ بِصَالِحٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَبَطَلَتْ أَحْكَامُ الشَّرْعِ، فَهُمْ مُثَابُونَ عَلَى ذلك إذا عدلوا." (٤)

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٤٠)
(٢) زاد المسير ٤٥٠/٢
(٣) تفسير القرطبي ٢١٦/٩
(٤) البحر المحيط ٢٩١/٦ .

قال محمد بن عبد الوهاب :" قوله: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ} ، هذا فيه طلب الولاية كما قال عمر بن الخطاب لبعض الصحابة لما عرض عليه ولاية فأبى فقال: "طلبها من هو خير منك يعني يوسف عليه السلام"، ولا يخالف هذا ما ورد من النهي عن طلب الإمارة لأنَّ هذا في غير شدة الحاجة، كما أنَّ خالداً لما أخذ الراية يوم مؤتة من غير إمرة مدح على ذلك." (١)

وقد اختلف العلماء في جواز الولاية إذا كان المولي ظالماً على قولين :

الأول : يجوز إذا كان يعمل بالحق ،وليس للظالم عليه في عمله سلطان ؛فالاعتبار بعمله لا بعمل المولي . قال القرطبي :" :" قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يُبِيحُ لِلرَّجُلِ الْفَاضِلِ أَنْ يَعْمَلَ لِلرَّجُلِ الْفَاجِرِ، وَالسُّلْطَانِ الْكَافِرِ، بِشَرْطِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُفَوِّضُ إِلَيْهِ فِي فِعْلٍ لَا يُعَارِضُهُ فِيهِ، فَيُصْلِحُ مِنْهُ مَا شَاءَ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَمَلُهُ بِحَسَبِ اخْتِيَارِ الْفَاجِرِ وَشَهَوَاتِهِ وَفُجُورِهِ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّ هَذَا كَانَ لِيُوسُفَ خَاصَّةً، وَهَذَا الْيَوْمُ غَيْرُ جَائِزٍ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى إِذَا كَانَ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ." (٢)، وقال الشوكاني :" وَقَدِ اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَوَلِّي الْأَعْمَالِ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ بَلِ الْكَافِرِ لِمَنْ وَثِقَ مِنْ نَفْسِهِ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ." (٣)

الثاني : لا يجوز ذلك لما فيه من إعانة الظالمين ،والله سبحانه وتعالى يقول : "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار"(هود :١١٣)(٤) .

والراجح هو القول الأول فإنَّ الركون المنهي عنه في الآية هو موافقة الظالمين في ظلمهم أو إعانتهم،على ظلمهم ؛ أما مشاركتهم لدفع

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) (ص: ١٥٦)

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٢١٥)

(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٣)

(٤) انظر الماوردي ٣/٥٠ وتفسير القرطبي ٢١٥/٩.

ضرر أو جلب منفعة فليس من الركون المنهي عنه . قال الرازي : "قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: الرُّكُونُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الرِّضَا بِمَا عَلَيْهِ الظَّلَمَةُ مِنَ الظُّلْمِ وَتَحْسِينُ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَتَزْيِينُهَا عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ وَمُشَارَكَتُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ فَأَمَّا مُدَاخَلَتُهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوِ اجْتِلَابِ مَنْفَعَةٍ عَاجِلَةٍ فَغَيْرُ دَاخِلٍ فِي الرُّكُونِ "(١)

وقد ذكر الشوكاني قوله تعالى :" ولا تركنوا إلى الذين ظلموا..." فبين أنها عامة في المشركين والظالمين من أهل الإسلام وأنَّ الله تعالى نهى عن الركون إليهم فكيف يستقيم الحال وقد بين النبي ﷺ أنَّ طاعة الأمراء والسلاطين وإنْ كانوا من الظالمين واجبة ومن جملة طاعتهم تولي المناصب الدينية وغيرها فهل يعد ذلك من الركون المنهي عنه فقال رحمه الله :" فَإِنِ اعْتَبَرْنَا مُطْلَقَ الْمَيْلِ وَالسُّكُونِ فَمُجَرَّدُ هَذِهِ الطَّاعَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا مَعَ مَا تَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْمُخَالَطَةِ، هِيَ مَيْلٌ وَسُكُونٌ وَإِنِ اعْتَبَرْنَا الْمَيْلَ وَالسُّكُونَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَلَا يَتَنَاوَلُ النَّهْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْ مَالَ إِلَيْهِمْ فِي الظَّاهِرِ لِأَمْرٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ شَرْعًا كَالطَّاعَةِ، أَوْ لِلتَّقِيَّةِ وَمَخَافَةَ الضَّرَرِ مِنْهُمْ، أَوْ لِجَلْبِ مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ أَوْ خَاصَّةٍ، أَوْ دَفْعِ مَفْسَدَةٍ عَامَّةٍ أو خاصة"(٢).

وقال القرطبي :" وَصُحْبَةُ الظَّالِمِ عَلَى التَّقِيَّةِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ النَّهْيِ بِحَالِ الِاضْطِرَارِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. " (٣).

---

(١) تفسير الرازي (١٨/ ٤٠٧) ، وانظر تفسير النيسابوري ٥٦/٤ .
(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٦٠١)
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ١٠٨)

المطلب الرابع

شبهة سجود أبوي يوسف عليه السلام له .ونقضها .

ملخص هذه الشبهة أنّ أبوي يوسف عليه السلام سجدا ليوسف والسجود لغير الله تعالى كفر.

قال ابن حزم : "وَأما سُجُود أَبَوَيْهِ فَلم يكن مَحْظُورًا فِي شريعتهما بل كَانَ فعلاً حسناً وَتَحْقِيق رُؤْيَاهُ الصَّادِق من الله تَعَالَى وَلَعَلَّ ذَلِك السُّجُود كَانَ تَحِيَّة كسجود الْمَلَائِكَة لآدَم عَلَيْهِ السَّلَام إِلَّا أَنَّ الَّذِي لَا شكّ فِيهِ أَنه لم يكن سُجُود عبَادَة وَلَا تذلل وَإِنَّمَا كَانَ سُجُود كَرَامَة فَقَط بِلَا شكّ "[١].

أجاب ابن حزم رحمه الله عن هذه الشبهة بأمرين :

الأول : أنَّ ذلك الفعل كان مشروعاً في شريعة يعقوب .

الثاني :أنَّ ذلك السجود هو سجود تحية لا سجود عبادة .

وقد وافق ابن حزم رحمه الله فيما ذهب إليه من التأويل الكثير من أهل العلم :

اختلف أهل العلم في المراد بالهاء في قوله تعالى :" فخروا له سجدا" هل المراد بها الله سبحانه وتعالى أم يوسف عليه السلام على قولين :

الأول : أنَّها تعود على الله تعالى فالسجود كان لله تعالى وإنما يوسف كالقبلة للمصلي فيكون المعنى: أنهم سجدوا شكراً لله إذ جمع بينهم وبين يوسف. رواه عطاء، والضحاك عن ابن عباس، وروي عن الحسن واسحاق [٢]. فقوله :" خروا له " أي لأجل وجدانه شكراً لله ، قالوا : وأما قوله تعالى :"والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين "(يوسف:٤) فلا يعكر على هذا القول لأنَّ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ لِأَجْلِي أَيْ أَنَّهَا سَجَدَتْ للَّه لِطَلَبِ مَصْلَحَتِي وَلِلسَّعْيِ فِي إِعْلَاءِ مَنْصِبِي،وقالوا إِنَّ هَذَا

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ٩-١٠) .

(٢) انظر :زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٤٧٤)

التَّأْوِيلَ مُتَعَيِّنٌ، لِأَنَّهُ لَا يُسْتَبْعَدُ مِنْ عَقْلِ يُوسُفَ وَدِينِهِ أَنْ يَرْضَى بِأَنْ يَسْجُدَ لَهُ أَبُوهُ مَعَ سَابِقَتِهِ فِي حُقُوقِ الْوِلَادَةِ وَالشَّيْخُوخَةِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ وَكَمَالِ النُّبُوَّةِ. كما قاله الرازي . [١]وقالوا :إنَّ قوله تعالى :" ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً " (يوسف:١٠٠)مشعر بذلك فإنه لو كان المراد السجود ليوسف عليه السلام لكان قبل الصعود إلى السرير فإنه أدعى للتواضع .

القول الثاني :أنَّ الهاء تعود على يوسف عليه السلام وهذا قول الجمهور قال ابن زيد في قوله: (وخرُّوا له سجدًا)، قال: ذلك السجود لشرَفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادةٍ. [٢]

وقد اختلف العلماء في كيفية هذا السجود هل هو بوضع الجبهة على الأرض أم مجرد انحناء وركوع أم غير ذلك مع اتفاقهم أنَّ ذلك السجود لم يكن سجود عبادة بل سجود تحية وإكرام .

قال ابن عطية :" وأجمع المفسرون أنَّ ذلك السجود- على أي هيئة كان- فإنما كان تحية لا عبادة. قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم "[٣].

قال البغوي : " وَلَمْ يُرِدْ بِالسُّجُودِ وَضْعَ الْجِبَاهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا هُوَ الِانْحِنَاءُ وَالتَّوَاضُعُ. وَقِيلَ: وَضَعُوا الْجِبَاهَ عَلَى الْأَرْضِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ التَّحِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، لَا عَلَى طَرِيقِ الْعِبَادَةِ. وَكَانَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ فَنُسِخَ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ" [٤].وقال السمعاني :" وَاخْتلفُوا فِي هَذِه السَّجْدَة فالأكثرون أَنهم سجدوا لَهُ، وكَانَت السَّجْدَة سَجْدَة الْمحبَّة لَا سَجْدَة الْعِبَادَة، وَهُوَ

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٥١١)
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٦/ ٢٧٠) .
(٣) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٨١) .
(٤) تفسير البغوي – إحياء التراث (٢/ ٥١٥)

مثل سُجُود الْمَلَائِكَة لآدَم – عَلَيْهِ السَّلَام – قَالَ أهل الْعلم: وَكَانَ ذَلِك جَائِز فِي الْأُمَم السالفة، ثمَّ إِنَّ الله تَعَالَى نسخ ذَلِك فِي هَذِه الشَّرِيعَة وأبدل بِالسَّلَامِ،"(١) .

قال ابن كثير :"{وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} أَيْ: سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} أَيِ: الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [يُوسُفَ: ٤] وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سلَّموا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ، وجُعل السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ." (٢) .

قال الثعلبي :" وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ سجدة تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة، نظيره قوله في قصة يوسف: وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وكان ذلك تحيّة الناس، ويعظم بعضهم بعضا، ولم يكن وضع الوجه على الأرض وإنما كان الانحناء والتكبير والتقبيل. فلما جاء الإسلام بطّل ذلك بالسّلام "(٣).

قال مكي بن أبي طالب :"وكان تحية القوم في ذلك الوقت السجود، قاله سفيان، وابن جريج، والضحاك، وقتادة، وهو مثل: " السلام عليكم " في هذه الأمة. جعل لهم عوضاً من السجود الذي كان تحيه من قبلهم "(٤).

قلت والراجح والله أعلم هو القول الثاني لأنه الموافق لظاهر الآيات ،فإنَّ قوله تعالى :"خروا له سجد" وقوله :"رأيتهم لي ساجدين" يدل على يوسف عليه السلام فإنَّ الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات، قال البغوي بعد ذكره لما روي عن ابن عباس :"والأول أصح " أي قول الجمهور . (٥)،

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٦٧) .
(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٤١٢) .
(٣) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١/ ١٨٠)
(٤) الهداية الى بلوغ النهاية (٥/ ٣٦٣٩)
(٥) تفسير البغوي – إحياء التراث (٢/ ٥١٥)

وقال السمعاني :" وَالصَّحِيح هُوَ الأول، هَكَذَا قَالَه أهل الْعلم، وَالدَّلِيل عَلَيْهِ أَنه كَانَ فِي رُؤْيَاهُ: {إِنِّي رَأَتْ أحد عشر كوكبا وَالشَّمْس وَالْقَمَـر رَأَيْـتهمْ لـي ساجدين} ، فالشمس وَالْقَمَر أَبَوَاهُ، وَأحد عشر كوكبا هم إخْوَته"(١) .

وإذ ثبت أنَّ سجودهم سجود تحية وإكرام لا سجود عبادة فقد انتفـت الشبهة من أصلها وهو المراد .

(١) تفسير السمعاني (٣/ ٦٧) .

المطلب الخامس

شبهة قول يوسف عليه السلام لمن معه في السجن :اذكرني عند ربك .ونقضها .

ملخص هذه الشبهة أنَّ يوسف عليه السلام غفل عن ربه، تعالى فطلب من الذي كان معه في السجن أنْ يذكره عند الملك حتى يخرجه من السجن .

وقد ردَّ ابن حزم على هذه الشبهة ببيان أنَّ طلب الخروج من السجن والسعي في ذلك بكل السبل لا يعد أمراً محظوراً ، وليس فيه غفلة عن الله تعالى ، بل هو أمر مفروض عليه ليتمكن من رفع الظلم عن نفسه وليتمكن من الدعوة إلى الله تعالى .

قال ابن حزم:" وَبِقَوْلِهِ للَّذي كَانَ مَعَه فِي السجْن اذْكُرْنِي عِنْد رَبك ".

ثم قال :" وَأما قَوْله عَلَيْهِ السَّلَام للَّذي كَانَ مَعَه فِي السجْن اذْكُرْنِي عِنْد رَبك فَمَا علمنَا الرَّغْبَة فِي الانطلاق من السجْن محظورة على أحد وَلَيْسَ فِي قَوْله ذَلِك دَلِيل على أَنه أغفل الدُّعَاء إِلَى الله عز وَجل لكنه رغب هَذَا الَّذِي كَانَ مَعَه فِي السجْن فِي فعل الْخَيْر وحضه عَلَيْهِ وَهَذَا فرض من وَجْهَيْن أَحدهمَا وجوب السَّعْي فِي كف الظُّلم عَنهُ وَالثَّانِي دعاؤه إِلَى الْخَيْر والحسنات" [١].

اختلف العلماء هل قول يوسف عليه السلام " اذكرني عند ربك" (يوسف:٤٢)هل قوله ذلك عن غفلة ونسيان لله تعالى أم لا ؟

ذهب ابن حزم رحمه الله إلى أنه ليس ناتجاً عن غفلة ونسيان لكنه أمر طبعي أن يطلب مثل ذلك ؛مع تذكر الله تعالى؛ وذلك بناء على أنَّ إنساء الشيطان ذكر ربه هو للساقي وليس ليوسف ، ثم إنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالنَّاسِ فِي دَفْعِ الظُّلْمِ جَائِزَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ. وسيأتي بيان هذه المسألة في الشبهة التالية .

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ١٠)

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ قول يوسف عليه السلام :"اذكرني عند ربك" كان غفلة منه وسهواً عن ذكر ربه وهو من الشيطان .وذلك بناء على أنَّ إنساء الشيطان ذكر ربه إنما هو ليوسف عليه السلام . وستأتي المسألة في الشبهة التالية .

قال الشوكاني :" وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَادِرَةً عَنْ ذُهُولٍ وَنِسْيَانٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِسَبَبِ الشَّيْطَانِ، فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْمَفْعُولِ فِي أَنْسَاهُ عَائِدًا إِلَى يُوسُفَ، هَكَذَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ "[1].

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٥)

المطلب السادس

شبهة أنَّ يوسف عليه السلام ينسى ذكر الله .ونقضها .

قال ابن حزم :" وَأما قَوْله تَعَالَى {فأنساه الشَّيْطَان ذكر ربه} (يوسف:٤٢) فَالضَّمِير الَّذِي فِي أنساه وَهُوَ الْهَاء رَاجع إِلَى الْفَتى الَّذِي كَانَ مَعَه فِي السجْن أَي أَن الشَّيْطَان أنساه أَن يذكر ربه أَمر يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام وَيحْتَمل أَيْضاً أَن يكون أنساه الشَّيْطَان ذكر الله تَعَالَى وَلَو ذكر الله عز وَجل لذكر حَاجَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام وبرهان ذَلِك قَول الله عز وَجل {وادكر بعد أمة}(يوسف:٤٥) فصح يَقِينا أَنَّ الْمَذْكُور بعد أمة هُوَ الَّذِي أنساه الشَّيْطَان ذكر ربه حَتَّى تذكر وَحَتَّى لَو صَحَّ أَن الضَّمِير من أنساه رَاجع إِلَى يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام لما كَانَ فِي ذَلِك نقص وَلَا ذَنْب إِذْ مَا كَانَ بِالنِّسْيَانِ فَلَا يبعد عَن الْأَنْبِيَاء"(١).

ملخص هذه الشبهة أنَّ يوسف عليه السلام حصل منه الغفلة عن الله تعالى وأنساه الشيطان؛ فذكر المخلوق ليخرجه من السجن ،ونسي الخالق ،فعوقب باللبث في السجن .

وقد ردَّ ابن حزم على هذه الشبهة ببيان أنَّ الضمير في قوله :"فأنساه" عائدٌ إلى الساقي الذي نجا ،فقد أنساه الشيطان أن يتذكر أمر يوسف عليه السلام أو أنه –أي الساقي– نسي ذكر الله أي أن يذكر الله ولو ذكره لما نسي حاجة يوسف عليه السلام ، ثم ذكر الدليل على ذلك وهو قوله تعالى :"وادكر بعد أمة" ،أي الذي أنساه الشيطان .

ثم ذكر القول الثاني على سبيل الافتراض وهو أنَّ الضمير يعود إلى يوسف عليه السلام فإنَّ ذلك لا يوجب ذنباً ولا نقصاً لأنَّ النسيان لا يبعد عن الأنبياء .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ١٠) .

اختلف العلماء في عود الضمير في قوله تعالى " فأنساه الشيطان ذكر ربه " على قولين [١]:

الأول : أنَّ الضمير يعود على الذي نجا ،فأنساه الشيطان تذكر حاجة يوسف عليه السلام حتى رأى الملك الرؤيا .قاله أبو صالح عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق ،وذكره ابن كثير عن مجاهد ،وقد استدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى :" وادكر بعد أمة " فإنها صريحة أنه تذكر ما كان قد أنسيه .

الثاني: أنَّ يوسف عليه السلام أنساه الشيطان ذكر ربه في الاستغاثة به والتعويل عليه. وقد وردت عدة آثار تؤيد هذا القول ذكرها ابن جرير وغيره ،قال بذلك ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وعكرمة، ومقاتل والزجاج .

ورجح كثير من أهل العلم القول الأول وممن رجح ذلك ابن كثير والسعدي وغيرهما.

قال ابن كثير : :" هَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} عَائِدٌ عَلَى النَّاجِي، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ"[٢] .

وقال ابن سعدي :" {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر

(١) حول هذه المسألة انظر : تفسير الطبري – جامع البيان ت شاكر (١٦/ ١١١) ، تفسير البغوي – إحياء التراث (٢/ ٤٩٣) ، التحرير والتنوير ٢٧٨/١٢ ، تفسير الماوردي = النكت والعيون (٣/ ٤٠) ، تفسير السمعاني (٣/ ٣٣) ، تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢٤٧) ، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٤٤١) ، تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٦١) ، تفسير القرطبي (٩/ ١٩٦) ، تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٥/ ٢٢٥) ، تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٣٩١) ، تفسير الشوكاني٣٥/٣ ، تفسير السعدي ص٣٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٣٩١)

يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه"(١).

وقال الشوكاني :" وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الَّذِي أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ هُوَ الَّذِي نَجَا مِنَ الْغُلَامَيْنِ وَهُوَ الشَّرَّابِيُّ، وَالْمَعْنَى: إِنْسَاءُ الشَّيْطَانِ الشَّرَّابِيَّ ذِكْرَ سَيِّدِهِ " (٢).

وذهب بعض العلماء إلى إعمال الاحتمالين جميعاً؛ قال ابن عاشور :" وَلَعَلَّ كِلَا الِاحْتِمَالَيْنِ مُرَادٌ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ. وَذَلِكَ أَنَّ نِسْيَانَ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ إِلْهَامَ الْمَلِكِ تَذَكُّرَ شَأْنِهِ كَانَ مِنْ إِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي أُمْنِيَتِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَهِيًّا فِي نِسْيَانِ السَّاقِي تَذْكِيرَ الْمَلِكِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِتَابًا إِلَهِيًّا لِيُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَلَى اشْتِغَالِهِ بِعَوْنِ الْعِبَادِ دُونَ اسْتِعَانَةِ رَبِّهِ عَلَى خَلَاصِهِ. وَلَعَلَّ فِي إِيرَادِ هَذَا الْكَلَام عَلَى هَذَا التَّوْجِيهِ تَلَطُّفًا فِي الْخَبَرِ عَنْ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ-، لِأَنَّ الْكَلَامَ الْمُوَجَّهَ فِي الْمَعَانِي الْمُوَجَّهَةِ أَلْطَفُ مِنَ الصَّرِيحِ"(٣).

قلت :وإن حصل ذلك النسيان بسبب الشيطان فإنه لا يوجب الخروج عن حدِّ عصمة الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) تفسير السعدي ص٣٩٨.

(٢) تفسير الشوكاني٣/٣٥ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢/٢٧٩ .

المطلب السابع

شبهة همِّ يوسف ﷺ بما حرَّم الله .ونقضها .

ملخص هذه الشبهة اتهام يوسف عليه السلام بالهم بالزنا ، وهو مناف للعصمة .

وفي الرد على هذه الشبهة بين ابن حزم أنَّ الهم الواقع من يوسف عليه السلام ليس كما قاله بعض المتأخرين ،وما روي عن بعض الصحابة في ذلك لم ينقله عن النبي ﷺ ،وأنَّ معنى الهم من يوسف عليه السلام لا يعدو أحد وجهين : الأول : أنه همَّ بالإيقاع بها وضربها. والثاني : أَنَّ الْكَلَام تمّ عِنْد قَوْله وَلَقَد هَمت بِهِ،ثمَّ ابْتَدأَ تَعَالَى خَبراً آخر فَقَالَ:" وهم بهَا لَوْلَا أَن رأى برهَان ربه" (يوسف:٢٤)أي لولا برهان ربه لهمَّ بها .ثم يدلل على ذلك بقوله تعالى :" كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء"(يوسف:٢٤) فهل الهم بالزنا سوءٌ أم ليس بسوء ؟ وكل عاقل يقول إنه من السوء ،إذن فبنص القرآن يوسف عليه السلام مبرء من هذا الهمّ، وكذلك قوله تعالى :"قَالَت مَا جَزَاء من أَرَادَ بأهلك سوءاً "(يوسف:٢٥) ، وقد أنكر يوسف ذلك منها والصَّادِق الْمُصدق إِنْ كَانَ قمصه قد من دبر فَكَذبت ؛فكذبها فيما ادعت .

قال ابن حزم : "وَبقول الله تَعَالَى وَلَقَد هَمَّت بِهِ وهمَّ بهَا لَوْلَا أَن رأى برهَان ربه ".

وقال ابن حزم : "وَأما قَوْله هَمَّت بِهِ وهمَّ بهَا لَوْلَا أَنْ رأى برهَان ربه فَلَيْسَ كَمَا ظن من لم يمعن النّظر حَتَّى قَالَ من الْمُتَأَخِّرين من قَالَ أَنه قعد مِنْهَا مقْعد الرجل من الْمَرْأَة ومعاذ الله من هَذَا أَنْ يظنّ بِرَجُل من صالحي الْمُسلمين أَو مستوريهم فَكيف برَسُول الله ﷺ فَقَط فَإِنْ قيل أَنَّ هَذَا قد روي عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنهُ من طَرِيق جَيِّدَة الْإِسْنَاد قُلْنَا نعم وَلَا حجَّة فِي قَول أحد إِلَّا فِيمَا صَحَّ عَن رَسُول الله ﷺ فَقَط وَالوهم فِي تِلْكَ الرِّوَايَة إِنَّمَا هِيَ بِلَا شكّ عَمَّن دون ابْن عَبَّاس أَو لَعَلَّ ابْن عَبَّاس لم يقطع بذلك إِذْ إِنَّمَا أَخذه عَمَّن لَا يدْرِي من هُوَ وَلَا شكّ فِي أَنه شَيْء سَمعه فَذكره لِأَنَّهُ رَضِي الله عَنهُ

لم يحضر ذَلك ولَا ذكره عَن رَسُول الله ﷺ ومحال أَنْ يقطع ابْن عَبَّاس بِمَا لَا علم لَهُ بِهِ لَكِن معنى الْآيَة لَا يعدو **أحد وَجْهَيْن:** إِمَّا أَنه هم بالايقاع بهَا وضربها؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:"وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه"(غافر:٥)، وكما يَقُول الْقَائِل لقد هَمت بك لكنه عَلَيْهِ السَّلَام امْتنع من ذَلك ببرهان أَرَاهُ الله إِيَّاه اسْتغنى بِهِ عَن ضربهَا وَعلم أَنَّ الْفِرَار أجدى عَلَيْهِ وَأظْهر لبراءته على مَا ظهر بعد ذَلك من حكم الشَّاهِد بِأَمْر الْقد من الْقَمِيص **وَالْوَجْه الثَّانِي** أَنَّ الْكَلَام تمّ عِنْد قَوْله وَلَقَد هَمت بِهِ ،ثمَّ ابْتَدَأَ تَعَالَى خَبراً آخر فَقَالَ:" وهم بهَا لَوْلَا أَن رأى برهَان ربه"، وَهَذَا ظَاهر الْآيَة بِلَا تكلّف تَأْوِيل وَبِهَذَا نقُول حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن عبد الله الطلمنكي حَدثنَا ابْن عون الله أَنبأَنَا إِبْرَاهِيم ابْن أَحْمد بن فراس حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن سَالم النَّيْسَابُورِي أَنا اسحق بن رَاهْوَيْهِ أَنا المؤمل ابْن إِسْمَاعِيل الْحِمْيَرِي حَدثنَا حَمَّاد بن سَلمَة عَن ثَابت الْبنانِيّ عَن أنس بن مَالك رَضِي الله عَنهُ إِنَّ رَسُول الله ﷺ قَرَأَ هَذِه الْآيَة:" ذَلِك ليعلم أَنِّي لم أخنه بِالْغَيْبِ"، قَالَ رَسُول الله ﷺ لما قَالَهَا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لَهُ جِبْرِيل يَا يُوسُف اذكر همك فَقَالَ يُوسُف وَمَا ابرئ نَفسِي أَنَّ النَّفس لأمارة بالسوء،[1] فَلَيْسَ فِي هَذَا الحَدِيث على معنى من الْمعَانِي تَحْقِيق الْهم بالفاحشة وَلكنه فِيهِ أَنه بأمرها وَهَذَا حق كَمَا قُلْنَا فَسقط هَذَا الِاعْتِرَاض وَصَحَّ الْوَجْه الأول وَالثَّانِي مَعًا إِلَّا أَن الْهم بالفاحشة بَاطِل مَقْطُوع على كل حَال وَصَحَّ أَنَّ ذَلِك الْهم ضرب سيدته وَهِي خِيَانَة لسَيِّده إِذْ هم بِضَرْب امْرَأَته وبرهان ربه هَا هُنَا هُوَ النُّبُوَّة وعصمة الله عز وَجل إِيَّاه وَلَوْلَا الْبُرْهَان لَكَانَ يهم بالفاحشة وَهَذَا لَا شكّ فِيهِ وَلَعَلَّ من ينْسب هَذَا إِلَى النَّبِي الْمُقَدّس يُوسُف ينزه نَفسه

(١) أخرجه الحاكم في " تاريخه " وابن مردويه والديلمي عن أنس رضي الله عنه مرفوعا. كذا في " الدر المنثور " (٤ / ٢٣) . قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٤/ ٤٥٥) منكر.

الرذلة عَن مثل الْمقَام فَيهْلك وَقد خشى النَّبِي ﷺ الْهَلَاك على من ظن بِهِ ذَلِك الظَّن إِذْ قَالَ للأنصاريين حِين لقيهمَا هذه صَفِيَّة[1] .

(قَالَ أَبُو مُحَمَّد) وَمن الْبَاطِل الْمُمْتَنع أَنْ يظنّ ظان أَنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام هم بِالزِّنَا وَهُوَ يسمع قَول الله تَعَالَى:" كَذَلِك لنصرف عَنهُ السوء والفحشاء"؛ فنسأل من خَالَفنَا عَن الْهم بِالزِّنَا بِسوء هُوَ أم غير سوء ؟ فَلَا بُد أَنه سوء وَلَو قَالَ إِنَّه لَيْسَ بِسوء لعاند الْإِجْمَاع فَإِذْ هُوَ سوء وَقد صرف عَنهُ السوء فقد صرف عَنهُ الْهم بِيَقِين. وَأَيْضًا فَإِنَّهَا قَالَت:"مَا جَزَاء من أَرَادَ بأهلك سوءا" وَأنكر هُوَ ذَلِك فَشهد الصَّادِق الْمُصدق إِنْ كَانَ قَمِيصه قد من دبر فَكَذبت وَهُوَ من الصَّادِقين فصح أَنَّهَا كذبت بِنَصّ الْقُرْآن وَإِذا كذبت بِنَصّ الْقُرْآن فَمَا أَرَادَ بهَا سوء فَمَا هم بِالزِّنَا قطّ وَلَو أَرَادَ بهَا الزِّنَا لكَانَتْ من الصَّادِقين وَهَذَا بَين جدا وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى عَنهُ انه قَالَ:" وَإِلَّا تصرف عني كيدهن أصب إِلَيْهِنَّ وأكن من الْجَاهِلين فَاسْتَجَاب لَهُ ربه فصرف عَنهُ كيدهن"، فصح عَنهُ أَنه قطّ لم يصب إِلَيْهَا وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيق تمّ الْكَلَام فِي يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام"[2].

ما ذهب إليه ابن حزم رحمه الله وافقه عليه الكثير من أهل العلم بل قال الرازي :" وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بَرِيئًا عَنِ الْعَمَلِ الْبَاطِلِ، وَالْهَمِّ الْمُحَرَّمِ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ، وَبِهِ نَقُولُ وَعَنْهُ نَذُبُّ"[3].

---

(١) رواه البخاري باب زيارة المرأة زوجها ج ٣/٥٠ ح ٢٠٣٨ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤ / ١٠-١١)

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٤٠)

وقد اختلف العلماء في الهم الذي وقع من يوسف عليه السلام على قولين(١) :

الأول : أنه همَّ يوسف عليه السلام كان من جنس همها بأنْ يجيبها إلى ما دعته إليه لكنه انكف عن ذلك لما رأى برهان ربه وقد قال بهذا القول الكثير من مفسري السلف؛ فهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن وسعيد بن جبير وغيرهم واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير، وابن الأنباري، وابن قتيبة وغيرهم . وقَالَ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام:" وَقد أنكر قوم هَذَا القَوْل؛ وَالْقَوْل مَا قَالَه متقدمو هَذِه الْأمة وهم كَانُوا أعلم بِاللَّه أَن يَقُولُوا فِي الْأَنْبِيَاء من غير علم"(٢). قالوا: ورجوعه عما همّ به من ذلك خوفاً من الله تعالى يمحو عنه سيّئ الهمِّ، ويوجب له علوَّ المنازل. (٣)

الثاني : قول كثير من متأخري المفسرين، أنه لم يهم بمواقعتها ،ثم اختلفوا في تأويل هذا الهم فقيل: همَّ بضربها ودفعها، وقيل : هَمَّ بها بالموعظة والتخويف من الله تعالى، قاله الكلبي ، وقيل : همّ بمخاصمتها ومرافعتها إلى زوجها، وقيل: تمّ الكلام عند قوله: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ثمّ ابتدأ الخبر عن يوسف وقال: وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ: على التقديم والتأخير تقديرها: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها ولكنّه رأى البرهان فلم

(١) حول هذه المسألة انظر : منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١١) ، تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨/ ٤٤٠) ،تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ١٨٧) ، تفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٥/ ٢١٠) ، تفسير الماوردي = النكت والعيون (٣/ ٢٣) ، تفسير السمعاني (٣/ ٢١) ، تفسير القرطبي (٩/ ١٦٥) ، زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٤٢٧)، تفسير ابن كثير ت سلامة (٤/ ٣٨١) ، التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٩) ، منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١١) .

(٢) تفسير السمعاني (٣/ ٢١)

(٣) زاد المسير زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٤٢٨)

يهمّ قاله قطرب، وقيل : وَهَمَّ بِها يوسف يعني تمنّاها أن تكون له زوجة، وقيل :إنَّ همها كان شهوة ، وهمه كان عفة .إلى غير ذلك من الأقوال .

ومن ذهب لذلك الإمام ابن حزم كما سبق واستدل على ذلك بأدلة سبق ذكرها .

وعلى القول الثاني فلا إشكال، فإنَّ ما صدر من يوسف ليس من المعاصي، وأما على القول الأول – ما عدا تلك المرويات التي فيها أنه حلَّ سراويله وما شاكلها إلخ – فيقال: إنَّ ما صدر من يوسف عليه السلام لا يعد من الكبائر المنافية للعصمة؛ فإنَّ الهم بالسيئة مع الكف والانصراف عنها لله تعالى لا يعد معصية بل هو طاعة لله تعالى. قال ابن عاشور : وَالْهَمُّ بِالسَّيِّئَةِ مَعَ الْكَفِّ عَنْ إِيقَاعِهَا لَيْسَ بِكَبِيرَةٍ فَلَا يُنَافِي عِصْمَةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكَبَائِرِ قَبْلَ النُّبُوءَةِ عَلَى قَوْلِ مَنْ رَأَى عِصْمَتَهُمْ مِنْهَا قَبْلَ النُّبُوءَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ"[(١)].

كما أنَّ بعض العلماء ذهب إلى أنَّ ما صدر عن يوسف عليه السلام كان قبل النبوة ،قال ابن عطية "وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن ينبأ عليه السلام"[(٢)] وقال ابن عاشور : " وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحَادِثُ قَبْلَ إِيتَائِهِ النُّبُوءَةَ لِأَنَّ إِيتَاءَ النُّبُوءَةِ غَلَبَ أَنْ يَكُونَ فِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ. وَالْأَظْهَرُ أَنه أُوتِيَ النبوءة وَالرِّسَالَةَ بَعْدَ دُخُولِ أَهْلِهِ إِلَى مِصْرَ وَبَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ. "[(٣)].

والصواب والله أعلم أنَّ الهمَّ الحاصل من يوسف عليه السلام كان من قبل همّ الخطرات لا هم الإصرار ؛الذي ما لبث أنْ ألجمه بلجام الخوف من الله تعالى ولذا قال :"معاذ الله "، وأخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله :"كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء"، ومثل هذا الهمَّ لا يؤاخذ به المرء ،

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٥٣)

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢٣٢)

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٤٩)

ولذا لم يعاتب الله تعالى يوسف عليه السلام على ما حصل منه ،قال ابن تيمية :" قالَ الامام أَحْمد الْهم همان :هم خطرات وهم اصرار؛ فهم الخطرات يكون من الْقَادِرِ؛ فَإِنَّهُ لَو كَانَ همه اصراراً جَازِمًا وَهُوَ قَادرٌ لوقع الْفِعْل وَمن هَذَا الْبَاب همُّ يُوسُف حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:" وَلَقَد هَمت بِهِ وهم بهَا لَوْلَا أَن رأى برهَان ربه "الْآيَة، وَأمَّا همُّ الْمَرْأَة الَّتِي راودته فقد قيل إنه كَانَ همَّ اصرارٍ؛ لِأَنَّهَا فعلت مقدورها" . الزهد والورع والعبادة (ص: ١٦٩) ، وقال أيضاً : " وَأَمَّا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَنْهُ ذَنْبًا فَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ عَنْهُ مَا يُنَاسِبُ الذَّنْبَ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ، بَلْ قَالَ: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: ٢٤] فَأَخْبَرَ أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ سُوءٌ وَلَا فَحْشَاءُ. "(١) .

****

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٦١)

الخاتمة

الحمد لله وحد والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، بعد هذا التطواف مع هذه الشبه المتعلقة بنبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ نقف مع أهم نتائج هذا البحث ؛فمنها:

أنَّ ما حصل من يوسف عليه السلام من إيحاش أبيه بأخذه لأخيه، وكذلك عدم إعلامه لأبيه بمكانه ليطمئن عليه وهو يعلم ما يقاسي من ألم الفراق ؛ليس من العقوق؛ بل إنَّ ما فعله يوسف بأخيه كان هو الأرفق بأخيه وبأبيه؛ وليتوصل بذلك إلى اجتماعهم ولم شملهم ؛ فنظر عليه السلام إلى ما هو الأصلح وفَعَلَه ؛ وهو ما حصل . والذي رجحه كثير من العلماء أنَّ ذلك كان بوحي من الله تعالى .

ومنها : أنَّ الزعم بأنَّ يوسف عليه السلام كذب حينما قال نفقد صواع الملك ،وقوله للعير إنكم لسارقون ولم يسرقوا . غير صحيح؛ فإنَّ قول يوسف عليه السلام كان حقاً ؛فإنه قال :"نفقد صواع الملك"؛ فإنَّ صواع الملك مفقود حقاً ، وأما قوله " إنكم لسارقون " فحقٌ أيضاً فإنهم سرقوه من أبيه وباعوه !ولم يسرقوا الصواع الذي أدخله في وعاء أخيه دونهم؛ فالمناداة بالسرقة لهم هم وحدهم دون أخيه الذي أدخل يوسف الصواع في وعائه .وهذا ما ذهب إليه ابن حزم ،وذهب بعضهم إلى أنَّ المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف. وذهب بعضهم إلى أنه فعل ذلك بوحي من الله تعالى.

ومنها :أنَّ الزعم أنَّ يوسف عليه السلام خدم الفرعون وقد نهى الله عن الركون إلى الظلمة فقد بين ابن حزم أنَّ يوسف عليه السلام فعل ذلك لأمور :

الأول : أنَّه فعل ذلك تقية للوصول لاستنقاذ أهل الأرض بحسن تدبيره.

الثاني : أنَّ الملك لعله آمن هو أو بعض خواصه .

الثالث : أنه إذ لم يستطع المغالبة ،فلم يمكنه إلا القيام بذلك للوصول

للحق وإقامة العدل .

الرابع : أنَّ ذَلِك كَانَ مُبَاحاً فِي شَرِيعَة يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَام بِخِلَاف شريعتنا .

ومنها : إنَّ إقرار يوسف لأبويه بالسجود له ؛لأنه كان سجود تحية لا سجود عبادة بإجماع العلماء .

ومنها :أنَّ قول يوسف عليه السلام للفتى الذي كان معه في السجن " اذكرني عند ربك" ليس ناتجاً عن غفلة ونسيان لكنه أمر طبعي أن يطلب مثل ذلك ؛مع تذكر الله تعالى؛ لأنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالنَّاسِ فِي دَفْعِ الظُّلْمِ جَائِزَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ.

ومنها : أنَّ المراد من قوله تعالى :"فأنساه الشيطان ذكر ربه " أي الفتى الذي خرج من السجن، وليس يوسف عليه السلام .

ومنها: أنَّ الصواب والله أعلم أنَّ الهمَّ الحاصل من يوسف عليه السلام كان من قبل همّ الخطرات لا هم الإصرار ؛الذي ما لبث أنْ ألجمه بلجام الخوف من الله تعالى ولذا قال :"معاذ الله "، وأخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله :"كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء"، ومثل هذا الهمّ لا يؤاخذ به المرء ، ولذا لم يعاتب الله تعالى يوسف عليه السلام على ما حصل منه .

الفهارس :فهرس المصادر والمراجع

١) أخبار العلماء بأخيار الحكماء لجمال الدين القفطي ت:شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية،لبنان ط١ ١٤٢٦ هـ

٢) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب لأبو نصر بن ماكولا، الناشر: دار الكتب

٣) العلمية –بيروت–لبنان ط١ ، ١٤١١هـ–١٩٩٠م.

٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ط: ١٩٨٤ هـ

٥) التداخل العقدي بين الفرق .رسالة دكتوراة في جامعة الإمام في الرياض غير منشورة للدكتور يوسف الغفيص .

٦) تذكرة الحفاظ ،لشمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١.

٧) تفسير ابن كثير لأبي الفداء بن كثير ، محقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة ط٢، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

٨) تفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور مراجعة:نظير الساعدي الناشر:دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١، ١٤٢٢ه

٩) تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري ، المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

١٠) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد القرطبي تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة ط٢ ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م

١١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس لمحمد بن فتوح الأزدي الميورقي الحَمِيدي الناشر الدار المصرية القاهرة،ط ١٩٦٦ م

١٢) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية الحراني تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم الناشر: جامعة الإمام ط٢، ١٤١١ هـ .

١٣) الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حـزم الأندلسـي ،تحقيـق عبـد الحـق التركماني،دار ابن حزم ط١، ١٤٣٠ه
١٤) صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري ،حققه د. مصطفى أديب البغا ، دار ابن كثير ، بيروت .ط٣، ١٤٠٧هـ
١٥) الفصل في الملل والهواء والنحل لأبي محمد علي بن أحمد بـن حـزم الظاهري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة
١٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحـق بـن غالب بن عطية الأندلسي ،حققه عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتـب العلمية ، لبنان ، ط١، ١٤١٣هـ.
١٧) معجم الأدباء لأحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،سـنة النشر ١٤١٣ه
١٨) منهاج السنة النبوية لتقي الدين أحمد بن تيمية ،حققه د. محمد رشـاد سالم ،مؤسسة قرطبة ،ط١، ١٤٠٦هـ
١٩) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ،حققه : إحسان عبـاس ،دار الثقافة . لبنان